أيها النيـــل !

للأســـتاذ دريني خشبة

أيها النيل ! يا أغنيةَ الأزل ! يا حلبي العزيز ! ما لي كلما مررت بشاطئك طافت بيَ الأحلام ، وازدحمت في روعي تهاويل الماضي ، ولم أدرما مَسّ القُبل النحيلة التي تطبعها نسماتك على أفواف الزهر ، وأفنان الدوح ، وصفحة الماء ، وخيال الشاعر ، وجبين النوتي ، وخدود العذارى ؟ !

ما لي أنسى جمـال الصباح المفتر ، والحدائق الضاحكة ، ولاز ورد السماء الذائب في تبر الشمس ، وأمواه الطبيعة المتبرجة ، وعبير الربيع الفـوّاح الذي يعطر جنباتك ، ويتضوّع فوق حفافيك ، ويملأ ملاعبك بهجة ، ويغازل الشعر والفن والجمال والحب . . . ما لي أنسى كل ذلك حينما تتصل روحي بروحك ، وينبض قلبي بالذي ينبض به قلبك ، فأحس كأنما ماؤك دموع حِرار تسكبها عيون الفراعنة ، وكأنما قطراتك أحقاب المجد المؤثل التي حـضرت الدنيا ، ومدينت الناس ، وهـدَت القلوب الضالة إلى الله الحق ، وسارت بموكب الإنسانية نحو النور المقدس الذي يهدي للرشد ، وانتشلت العقول من غرائز الغابة بما أشاعت فيها من بينات الهدى والعرفان !

أيها النيل !

ما أروع ما يتغنى الزمان بنشيدك الخالد ! ها هم أولاء الفراعين الصِّيدُ يهمسون فيهتز الوادي ، ويطرب الكرنك ، وتصحو منف ، وترتجف أُون ، وتبسم أكاليل الغار على رؤوس القادة ، وتصرخ الصقور والبُزّاة : هوراس ! هوراس !

فأين هو هوراس اليوم ؟ إنه جريح مهيض الجناح ، لأنه كلما رَأَرأَ بناظريه في سمائك يا نيل رأى بُزاةً لا تهتف بعظمتك ، ولا تسبّح بحمدك ولا تقدس لك ... بُزاة لا ترعى لك كرامة لأنها تعدك فريستها ... فإذا أدار هوراس ناظريه إلى الأحفاد وجدهم مشغولين عنك بالعَبث ، منصرفين عن المجد في أسرك إلى اللهو ومتاع الغرور !

ما أروع ذكريات الصبا على ضفافك يا نيل ؟

لقد كنا نجلس فوق حفافيك وفي يد كل منا سنارة يُداعب بها صغار أسماكك كلما طلعت شمس أو غابت ذكاء ... وما أنسَ لا أنس يوم مرت بنا إحدى بواخر شركة كوك للسياحة ، فرأيت الدنيا تدور من حولي ، ونظر إليّ رفاقُ صباي فرأوا عبرة حزينة تترقرق في عيني ... ثم تنهمر على صدري فتقف قريباً من قلبي الذي كان معها على ميعاد ... لقد كان يخفق هو الآخر ! ... لقد ذكرت أسلافي سِبْيةَ الفراعنة ... سِبْيةَ مصر العظيمة الخالدة ... يداعبون أسماكك يا نيل ، فلا تمر بهم إحدى بواخر كوك للسياحة ، تلك التي جرح مرآها كبريائي ، وردت إليّ طرفي وهو كسير حسير ... !

لقد كان أبناء الفراعنة أولاد أمة كريمة لا يجسر الأجنبي على أن يحل بها إلا ضيفاً ... أما أن يكون فيها سيداً ويبنيه فوقك على بواخره الماخرات ، فقد كنت تنقلب بحراً من الدماء يا نيل يقذف به إلى اليم ، أو يُلقمه أفواه التماسيح

لهذا نسيت صيدي ، ولهى رفاق صباي أبكي ... فلما

إن الوطن المصري وطنٌ مبدع ، وله في الإبداع ألوان ، ومن آيات إبداعه أن يجود في العصر الواحد بأفانين من الأذواق والعقول في كثير من الميادين

ثم ماذا ؟

ثم يبقى القول في تحامل العقاد على المازني ، وقد أراد أن يستر تحامله فشهد بأن المـازني أقدر كاتب على الترجمة من لغة أجنبية إلى اللغة العربية

فمتى كانت الترجمة عملاً ذاتيًّا يقام له ميزات بين أعمال الرجال؟

الترجمة شيء مطلوب ومفيد ، ولكنها ليست بالعمل الذي يجعل فرداً أقدر من فرد ، وأمة أقوى من أمة ، ومزية مصر أنها تبدع قبل أن تترجم ، وذلك دليل الأصالة الذاتية ، وهو سر تفوق مصر على كثير من الشعوب

من المؤكد أن الأستاذ العقاد كان يمزح وهو يسطر مقاله لمجلة الإثنين ، فإن بدا له أن يجد فليساجلني على صفحات الرسالة الصديق ، وله مني خالص التحية وعاطر الثناء .

زكي مبارك

وقفتهم على ما شجاني لم يلبثوا أن بكوا مثلي ... وحطم كل منا سنارته ، وقذف بها في أذيال هـذا الثبج المنساب وراء باخرة كوك . وعدنا إلى القرية محزونين !

ما أجمل الخمائل التي تنشد فوق عدوتيك قصائد الورد يا نيل !

لله هذا الأيك الذي تغنى فيه حمائمك البيض بالنهار ، ويرتل فيه الكروان أورادك بالليل !

فتنة ! أنهرك فتنة ! ولياليك فتنة ! وأنهرك يلعب في سماواتها السبع أتون ، ولياليك يرقص بين أنجمها خون ! أتون الشمس المشرقة الضاحكة . وخون البدر السافر الطروب !

لقد كانت مصر الجديدة مشرقة ضاحكة كالشمس ، سافرة طروباً كالبدر ، وكان المصريون يتوقدون كما يتوقد النيران الشمس والقمر ، وكانوا ينشدون في الدنيا كلها عبق ورودك يا نيل ، ويتغنون لموكب الإنسانية نشيد إنشادك ، وورد أورادك ، وموكب الإنسانية من ورائهم يسير . فماذا دهى الدنيا ؟ إن الشمس ما تزال تشرق ، وإن القمر ما يفتأ يسكب جُنْحَه في واديك

لن أنسى أبداً تلك الليلة القمرة في رحبات خوفو ، وبين يدي أبي الهول ، حينما كنت أنصت إلى تسبيح الآباء الصناديد يملأ الفيافي والبيد ، وهتاف الأجداد الأمجاد ، يدوي بين تلك الأوتاد ...

لقد خيل إلي أنني عدت الفهقرى لأعيش في هذا العصر بين أسلافي الأعزة ، فذهبت بخيالي أول ما ذهبت إلى أقرب معبد فشهدت قوماً يصلون لله ويقولون : « نحب الله والوطن والملك ، نحب الحياة العزيزة ونحب العمل الخالص لوجه الله والوطن والملك . الله والوطن والملك في كل مكان وليس في المعبد فقط »

ثم ذهبت إلى أقرب بيت فوجدت في حديقته الصغيرة من ورودك يا نيل ، وذهبت إلى البيت الذي يليه فشممت فيه عبير رياحينك ، فتنقلت بين المنازل كلها فلم أجد واحداً ، واحداً فقط ليس له حديقة . وهنا ذكرت زهرة النيلوفر . زهرة اللوتس المقدسة ، تلك الزهرة التي كانوا يبرزونها في كل شيء . في مبانيهم وفي ملابسهم وفي آنيتهم وفي سفائنهم ... وحتى في مقابرهم ... فذكرت أنهم كانوا دائماً يعيشون فيك ، لأنك أصل الحياة ومصدر العيش وجالب الخير وصانع المدنية . لذلك هم يقدسونك ولا يدنسون عُدْوَتيك بما يدنسها المصريون اليوم مما لا أسميه (١) ... ولا يلقون فيك الجيف والرمم . بل يحيونك بباقات الورد وأكاليل الرياحين وضفائر اللوتس . أليست بلادهم حديقة يا نيل ؟ أليست مصر أبدع حدائق الدنيا ؟ إن الأمة التي لا تفهم سر الحديقة ، ولا تعرف لغة الورد ، هي أمة لا قلب لها يا سيد الأنهار

ثم ذهبت إلى دار ندوتهم فوجدت فيها ملأ يأتمرون ... لم أسمع كلمة آثمة تقال يا نيل ... ! لقد أصغيت إليهم يمحصون خير هذه البلاد في أدب وهدوء ... وفي وقار ... لم أسمع مطلقاً كلمة لاغية يصيب بها مصري عرض مصري ، ولم أر مصرياً يرمي مصرياً بالمروق ، ولا بانتهاب مال الدولة ، ولا باحتساب أقاربه وأصهاره ، وإيثارهم بالمناصب والأعطيات ... ولم أر واحداً منهم يحتكر الوطنية والإخلاص لمصر ، ويَسْفَه على معارضيه ويرسل لسانه فيهم ، ويتهمهم بمالأة العدو .. مما نستهين به اليوم ، ونصنعه في غير مبالاة ولا اكتراث ، كأنه من الهنات الهينات . لقد رأيتهم جميعاً كرماء على أنفسهم ... لا يحمل أحدهم موجدة لأخيه ، ولا يبطن له ما يكره ... أليسوا يقولون في صلاتهم : « نحب الله والوطن والملك ... نحب الحياة العزيزة ونحب العمل الخالص لوجه الله والوطن والملك ... الله والوطن والملك في كل مكان ... وليس في المعبد فقط ! »

ما أجمل ما كانوا يأتمرون في غير سفاهة ولا مهارة ، في سبيل إسعادك يا نيل !

غير أنني استيقظت من أحلامي فجأة ، لأن أحد رُوَّاد الأهرام عثر بي وانحطم كالبنيان الشاهق فوق ... فلما نهض ونظرت إليه ... وجدته ... أحد جنود الأنزاك ! وعندما أدرت عيني ... وقعتا على وجه أبي الهول ... فرأيته يضحك عليَّ ... ساخراً بي وبأحلامي ... والذي أذهلني أنني رأيت شفتيه الغليظتين تتبسان ... فأرهفت أذني ... فسمعته يقول : « ألست تعلم أن هؤلاء الأنزاك قد جاءوا يدافعون عنك ؟ لم لا تعتذر للجندي الباسل ! »

إلا أنني لم أعتذر للجندي الباسل ، ولم أصدع بما أمرني أبو الهول . وكانت هذه هي أول مرة يعصى فيها أمر للملك خفرع !

وأقسمت إن أنا أصبحت في برلمان مصر فلن أهاتر ولن

أسفه ، ولن أتهم زعيما عظيما بالمروق ، ولن أخوض فى عرض أحد من المصريين ، ولن أفرغ لهذا العبث ؛ وإن أنا أصبحت زعيما فلن أحتكر الوطنية لنفسى ، ولن تثيرنى تخرصات السفهاء !

أليس وجود هؤلاء الأنذال كفيلاً بأن يشغلنا عن كل شىء ؟ لماذا يجهدُ العالم وتهزل ؟ لماذا تبكى الإنسانية وتعبث ؟ لماذا لا نأخذ عبرتنا من أنهار الدماء التى ضرجت جنبات مصر نفسها ؟ لماذا لا نصغى إلى همس الفراعنة ؟ لماذا لا يفزعنا هديرك الصخاب يا نيل !

لقد كنا نتعلم فى المدارس أن تلال العرب وتلال لوبية تحميانك من رمال الصحراء يا نيل ! والحمد لله ، إنهما ما تزالان قائمتين بوظيفتهما التقليدية ، وما تزال أنت دائباً على فطرتك التى فطرك الله عليها ... تأتى بالزيادة فى ميعادك فتأتى بالخير واليمن والبركات ... قصة العنبرة السوداء والزبرجدة الخضراء التى رواها عمرو — إلى عمر — ما تزال تمثل على مسرحك إلى اليوم ، كما كانت تمثل منذ آلاف السنين قبل عمرو وعمر ... وما تزال المياه الحمراء تجرى من الجنوب إلى الشمال فتنبت الحنطة والبقول وتهتز الخمائل ويُؤتى الأكل

أفتحميك التلال يا نيل ولا تحميك ، وتعطينا ولا نفديك ، وتحفظ عهودنا ولا نحفظ لك عهداً ، ويقصد بك السوء فلا نقف من حولك جنداً ؟! لشدَّ ما كفرنا بغناء بلابلك ، وشدو جداولك ، وفىء خمائلك ، وزلال سلسبيلك ، وفيض نوالك ، وعبق رياحينك ... وبكل أياديك يا نيل !

كيف يخصب ثراك وتجدب قلوبنا ؟ كيف ينبت الورد فى واديك وينبتُ الشوك فى نفوسنا ! كيف تدبُّ الحياة فى مروجك ويتسرب الموت إلى أرواحنا ؟

إن هذه خلائق الصحراء يانيل ! الصحراء ... حيث الجدب والشوك والحسك ... الصحراء القادرة التى لا تعرف الوفاء ... الصحراء التى يصيبها الوابل ثم تجحده ، لأنه يغور فى قلبها الذى يشبه قلوبنا ...

ما أشد عواصفها الهُوج ... هذه النَّسْماء المُضِلَّة !!

ولكن ... لا ... إنها مهما بلغت من العنف فلن تبلغ ما بلغته عاصفتنا الهوجاء من بأس ...

لله يا نيل تلك المحنة الأخلاقية التى تمزق وحدتنا ، وتمسخ وطنيتنا ، وتبعثر جهودنا ، وتشعب أمرنا ، وتزيد فى وهننا ، وتضحك الأمم علينا ، وتُغرى الأعداء بنا ، وتُلبسنا شيعاً وأحزاباً ، وتذيق بعضنا بأس بعض !

أهكذا نستقبل الربيع فى جنَّاتك يا نيل ؟

أين فرعون المحتفل والكاهن الشادى والشعب المغنى !

أين القائد الظافر والجند المنتصر والطائر الميمون !

أين البنود والأعلام ؟ أين الشعراء والأقلام ؟ أين العلماء الأعلام ؟

أهكذا نستقبل الربيع بعواصفنا كما يستقبلنا بعواصفه ؟

أهكذا لا نستطيع أن نتعلم درساً فى الجد من المجزرة البشرية الماثلة ؟ ألا فى هذا الحد تعقم وطنيتنا يا نيل ! أفى زحمة تلك الدموع التى تسكبها عيون اليتامى والمنكوبين فى بولندة وروسيا والصين ... نعيث فوق ضفافك هذا العيث يا نهرنا المقدس ؟

يا رب !

تدارك اللهم هذه الأمة فلم شملها ، وارأب صدعها ، واحسم داءها ، وسدَّ ثلمتها ، وأقم ما مال من أمرها ، وأصلح بالها ، وأقل عثرتها ، وألهمها السداد منك ، والتوجه إليك ، والإيمان بك ؛ فهذه محنة ليس لها إلا أنت ... إن لم تتداركنا فمن يرحمنا ؟ وإن غضبت علينا فمن لنا ؟ ... اللهم فأصلح ذات بيننا فقد أفسد أمرنا ، وبهظنا الخلاف حتى ساء حالنا ... اللهم إن هؤلاء قوم قد ضلوا سبيلك الحق فردهم إليه ، واستفزهم الشيطان بغروره فنجهم منه ، وافتتنهم فلا تدعه يستحوذ عليهم ... اللهم إلا تهدنا نضل ، وإلا تنجنا نهلك ؛ فهذِّب اللهم أعراقنا ، وطهر أخلاقنا ، فلا ملجأ لنا إلا إليك ، ولا نعوذ إلا بك يا قريب !

أرأيت يا نيل إلى هذه الوحدانية الجميلة الهينة الحقيقية ؟!

أليست خيرا ألف مرة من أربابك الفدامى المتفرقة ؟ أوزوريس وإزيس وولدهما هوراس ! وهذه العصبة التى لا تنتهى ... ورع ... وأمون ... ثم أمون رع ... بل الله الواحد الخلاق .

فما لنا نقدس لله الواحد وقلوبنا شتى ؟!

ما لنا نعتصم بحبال من الشيطان ولا نعتصم بحبل من الله !

ما لنا نفرقنا وقد أمرنا الله أن نتحد ؟

علام الخلف بيننا والوطن ما يزال جريحاً يهتف بنا وبنادينا ؟

هل يليقُ أن تكون الوطنية مغنماً ومغرماً والأقوياء يتطاحنون علينا ؟

أرأيتم إلى فرنسا ماذا أصابها ؟ إن آخر بطلين من أبنائها ما يزالان فى شقاق ...

فمن لك يا نيل ... !

دمنهور

عبد الرحمن شهبندر